قصر الحمراء .. أنموذج للبيت الأوروبي

2-1

إنجمار كارلسون
ترجمة: سعيد الجعفر

عاش الإسلام والمسيحية جنبا الى جنب ما يقرب من ١٤٠٠ عام. وكانا جارين على الدوام، متنافسين في غالب الوقت ومتناحرين في كثير من الأحيان. وهما في واقع الأمر دينان شقيقان لأنهما يتقاسمان الموروثات الشرقية الهيلينية واليهودية. ولقد كانا وفي الوقت ذاته قريبين من بعضهما البعض وعدوين لدودين. وتميز عدائهما بمرارة خاصة بالذات بسبب اشتراكهما بمصادر أصلية واحدة. فما فرقهما عن بعضهما التشابه أكثر منه الاختلاف.
وقد أعتبر كل منهما نفسه حاملاً للرسالة الإلهية الختامية. وإن واجبه يحتم عليه نقل الرسالة الى بقية البشر. وأعتبر كل منهما أن الدين الآخر عقبة كأداء في وجه إنجاز تلك المهمة النبيلة.

ولقد تشكلت العلاقة بين المسيحية والإسلام من جهة، وبين هذين الدينين واليهودية من جهة أخرى من خلال القرون الزمنية التي فصلت بين هذه الديانات الثلاث. إذ على الرغم من كون المسيحية لم تعتبر اليهودية ديناً زائفاً كلياً، إلا أنها اعتبرتها تبشيراً منقوصاً لما سيأتي ودياناً من الماضي جرى استبداله بالحقيقة المطلقة، بالمسيحية.
أما المسيحية فقد اعتبرت ان كل ما جاء بعدها زائفاً ولا يمكن التهاون معه. وهذا ما يفسر الموقف السلبي للمسيحية تجاه الإسلام. وبناء على ذلك، وحتى حلول القرن الحالي، لم يكن هناك مكان للإسلام في الدول التي سيطرفيها المسيحيون على زمام السلطة.
ولم يقبل الإسلام أيضاً، حاله حال المسيحية، الأديان التي تلته. إذ أن محمد هو«خاتم الأنبياء» والأخير في سلسلة طويلة من الرسل تبدأ بإبراهيم مروراً بموسى وعيسى. ولهذا السبب فإن الأحمديين(الذين ينظرون الى أنفسهم كونهم مجددين في الإسلام) والبهائيين (الذين يعتبرون ديانتهم مستقلة وليست فرعاً من الإسلام) تعرضوا للاضطهاد والملاحقة، ومازالوا يتعرضون لها، تماماً كما كان المسيحيون يفعلون مع المسلمين. ومن جهة أخرى أعتبر الإسلام المسيحية واليهودية ديانات سابقة وغير كاملة. وبالطبع فإنها ديانات منقوصة لأنها لا تعترف بآخر الأنبياء. ولكنها ديانات توحيدية أيضاً ولذا فأن أتباعها ،أهل الكتاب، يستحقون المعاملة بتسامح على الرغم من أن عليهم التسليم بالطاعة للدولة الإسلامية .

لقد رحب المسيحيون في سوريا ومصر وبلاد مابين النهرين بالفتح الإسلامي في الثلاثينيات من القرن السابع. وفضل هؤلاء العيش تحت وصاية أبناء عمومتهم الذين يشتركون معهم في الأصول اللغوية والعرقية على العيش تحت سلطة يونانية-رومية-بيزنطية أو آرية فارسية. وعلى أساس ذلك قام المسيحيون بمساعدة الجيوش العربية الغازية في مناسبات متعددة.
أما بالنسبة لليهود فإن التوسع الإسلامي كان يعني تغييراً في أوضاعهم نحو الأحسن في مسائل عدة. لقد جاء الفتح الإسلامي محرراً لليهود من الحكم المسيحي الذي رزحوا تحته طويلاً. وعلى الرغم من أن الإسلام جاء في زمن تميز بعدم التسامح والقسوة فإن المسلمين لم يحاولوا القضاء على الديانات السابقة عليهم، كما فعل الصليبيون فيما بعد. إن الفضل في بقاء واليهودية المسيحية في تلك المنطقة يعود الى تسامح الإسلام.
وسرعان ماتم تأسيس مناخ تفاهمي بين الديانات الثلاث على الرغم من أن هذا كان تحت الشروط التي فرضها الإسلام. إذ سيطر الفاتحون على زمام السلطة السياسية والعسكرية وأستقروا في معسكراتهم حيث قاموا بتثبيت حكمهم والسيطرة على السكان. وفي الوقت ذاته حافظت المدن على نظمها وطبيعتها القديمة. وكان المسيحيون الشرقيون معتاد ون على إطاعة الحكم الأجنبي ودفع الضرائب. لكن الأسياد الجدد الذين جاءوا من الصحراء مختلفون عن الحكام القدامى فهم لا يتدخلون في عاداتهم الدينية ولا يفرضون عليهم تبديل معتقداتهم. لا بل أن أعمال الإدارة والتنظيم تركت في أيدي أهل البلاد الأصليين ولم يدمر الفاتحون المؤسسات والبنى اليهودية والمسيحية نظراً لأن أهل البلاد الأصليين كانوا أكثر تطوراً منهم في الحقل الاجتماعي.
وعلى الرغم من أن المسيحيين واليهود عاشوا بسلام جنباً الى جنب مع المسلمين الا أن تفوق الأوائل لم يكن متناسباً مع التهميش الاجتماعي الذي باتوا فيه بوصفهم أدنى من المسلمين ومواطنين من الدرجة الثانية. لكن بالطبع كان هناك دائماً مجال الانضمام الى النخبة عبر اعتناق الإسلام. وسرعان ما وقع الكثيرون في حبائل هذا الإغراء فتخلوا عن دين آبائهم لأغراض انتهازية. ولقد قويت شوكة الإسلام عبر استيعاب ممثلي الثقافات القديمة وعبر التعايش مع هذه الثقافات. لكن لم يكن هنالك من مفر أن يؤدي هذا الى إشعال شرارة المناظرات والمخاصمات الروحية الدينية والى زيادة حدة العداوة. وكلما زاد عدد أولئك المتحولين الى الإسلام ، أي كلما ازدادت قوته، كلما ازداد الضغط على الذين لم يصبحوا مسلمين. وبات حظر بناء الكنائس والكنس متواتراً أكثر فأكثر حتى تمخض الوضع عن إصدار قانون» أهل الذمة « ، الذي أجاز للفرد المسيحي أو اليهودي ممارسة ديانته شريطة أن يقوم بدفع «الجزية»، التي كانت ،فضلاً عن أنها ضريبة، تعبيراً مجازياً عن الخضوع وعن قبول موقع الدونية الذي تجسد في قرارات وقوانين متعددة.
لقد اظهر الفاتحون المسلمون تسامحاً كبيراً لم يكن معهوداً في ذلك الزمن . وتأثر العرب، خلال فترة الفتح الانفجاري عبر القارات الأربع، بجميع الثقافات وأ نماط الحياة في المناطق التي وصلوا إليها، من آسيا الوسطى الى المحيط الأطلسي أي انهم لم يتأثروا بالمسيحية واليهودية فقط ولكن أيضاً بالهنود والفرس والمصريين الذين تأثروا بدورهم بالثقافة الهيلينية.
وعندما جاء الفتح الإسلامي كانت الثقافة اليونانية القديمة ما تزال حية في الشرق منذ ان جاءت اليه على يد الإسكندر. وكانت العلوم الهيلينية منتعشة في كل من مصر وسوريا والإمبراطورية الفارسية ، حيث تمت ترجمة الأعمال اليونانية الى اللغة الآرامية ، لغة الشرق الأدنى المشتركة آنذاك، كما تم توحيد العلوم اليونانية مع العلوم الفارسية والهندية.
وتم إنجاز النقلة الحضارية المهمة عبر جهود الترجمة المكثفة للأعمال اليونانية الكلاسيكية، مثل أعمال أرسطو و إقليدس وأبيقراط وغيرهم. وتمت الترجمة من العربية الى المصادر اليونانية والعبرية والسورية. وقام المسيحيون العرب، من أتباع الكنائس الارثوذوكسية السورية والنسطورية، بإنجاز عدد من الترجمات تلك. على أن الترجمة لم تكن حرفية.فغالباً ماكان يجري التعليق على المصدر الأصلي ونقده وإضافة حواش اليه. وبهذا الشكل بات المسلمون الوريث الحقيقي للثقافة الهيلينية التي غالباً ما يستخدمها الغرب كمرجع ومصدر. إن جهود الترجمة الإسلامية الكبيرة صانت هذا التراث الثمين وتولت إدارته.
وصلت جهود الترجمة ذروتها على يد الطبيب المسيحي السوري حنين بن إسحاق. جمع ابن اسحق في رحلاته الطويلة مختلف الإصدارات المؤلفات للمخطوطات المتوفرة آنذاك ، وقام بمقارنتها قبل ترجمتها الى السورية أو العربية. وفي مطلع القرن التاسع تم تأسيس دار «الحكمة» في بغداد حيث باتت تلك الأعمال متوفرة بالعربية التي كانت قد أصبحت لغة العلوم آنذاك.
كانت بغداد مركز العالم خلال الفترة من عام ٧٥٠ والى عام ١٢٥٨ حين قام المغول بتدميرها. وفي الوقت الذي كان فيه أهل شمال أوروبا يهيمون على وجوههم ويلبسون جلود الحيوانات، كانت بغداد تنعم بحضارة مزدهرة متطورة تميزت بالتعايش بين المسلمين والمسيحيين واليهود. وبغداد، التي أصبحت مؤخراً رمزاً للمشاكسة وعدم التصالح، كانت آنذاك تعرف بمدينة «السلام».
إن الثقافة الإسلامية،على ذلك، ليست غريبة كما تدعي كليشهات الغرب وأفكاره السبقية. ولعل ذاك السعي المحموم تجاه نمط الحياة الرفيع مازال يعكس نفسه الى يومنا هذا في بعض التعابير المتداولة في اللغات الأوروبية والمستعارة مباشرة من العربية. فهنالك القليل من يعرف أن كلمة «الجالا « (الحفل الكبير احتفاء بشخص أو حدث مهم) جاءت أصلاً من العربية. واصل التعبير والمناسبة هو «الحلة» التي كان الأمير الشرقي يخلعها على شخص قام بأداء عمل أو خدمة جليلة. واليوم نجد في العديد من اللغات الأوروبية استعارات محورة من هذا التعبير.
لا شك أن الدين كان الأساس الذي تقوم عليه الهوية. وكان الدين بدوره يرتبط بنظام الحكم الإقطاعي. ولكن العلاقة بين المجموعات الدينية كانت ترتكز على التسامح المتبادل في ما بين هذه المجموعات، الذي كان مستمداً بدوره من مبدأ «أهل الكتاب» الذي ورد ذكره في القرآن.
ويمكن اعتبار عمليات التحول بين الديانات الثلاث بمثابة مقياس خاص لمبدأ التسامح المعمول به آنذاك. وكان التحول من المسيحية واليهودية الى الإسلام شائعاً، ليس فقط لأن هذا كان يعني التوقف عن دفع ضرائب معينة، ولكن لأن هذا كان يفتح الطريق أمام الصعود الاجتماعي. صحيح أنه كان بإمكان الأفراد المسيحيين تبوأ مراكز رفيعة في البلاط الملكي، ولكنهم كانوا عرضة للطرد حال حدوث تبدل في السلطة. ولا شك أن اعتناق المسيحيين للإسلام(«والمولدون» هو الاسم الذي كان يطلق على هؤلاء) كان يجلب لهم طمأنينة أكثر ويفتح أمامهم فرص التقدم في الهرم الاجتماعي. وأختار عدد كبير من الذين فضلوا البقاء على دينهم المسيحي أو اليهودي تحوير اسمائهم الى اسماء عربية مثل ابن كذا أو كذا..
وبالمقابل تبنى المسلمون التقويم المسيحي نظراً لأنه أكثر تلاؤما مع الدورة الزراعية. وكانوا يحتفلون ايضاً بالمناسبات المسيحية مثل رأس السنة وعيد الفصح وأعياد بعض القديسين. وكانت المدارس مشتركة بين الديانات الثلاث حيث كان كل من القرآن والتلمود والإنجيل مصادر مشتركة للمعرفة. وعلى الرغم من ان المسلم الذي يتحول الى ديانة أخرى يعتبر مرتداً حسب تعاليم القرآن ويحل قتله، إلا انه كان هنالك مرتدون، أي أشخاص تحولوا من الإسلام الى المسيحية.
وكان هنالك خمس لغات قيد الاستعمال ، لغتان للحديث، العربية والأندلسية ولغة الرومانا العامية (التي تطورت فيما بعد الى اللغة الأسبانية) إضافة الى لغات ثلاث للكتابة هي العربية الفصحى والعبرية واللاتينية.
حرر الفتح الإسلامي اليهود من الاضطهاد الذي كانوا يعانون منه تحت الفتح القوطي الغربي و المسيحي. ولقد تأقلم اليهود مع الثقافة العربية ووصلوا الى مناصب عالية في فترة الازدهار تلك . وشارك اليهود أيضاً بقسط في التطور العلمي والفلسفي والأدبي الذي تحقق خلال تلك الفترة والذي تمركز حول قرطبة. وتم إعادة نفخ الحياة في اللغة العبرية بظل الدعم العربي وحمايته. وعلى الرغم من ان اليهود كانوا يكتبون بالعربية عند تناول الفلسفة والعلوم، الا أن العبرية كانت لغتهم المفضلة عند كتابة الشعر. وربما كانت تلك هي المرة الأولى التي جرى فيها استخدام العبرية لأغراض أخرى غير الطقوس الدينية.
ولقد ارتحل اليهود الى أسبانيا العربية من الأصقاع كافة حتى أن غرناطة باتت مدينة ذات صبغة يهودية. ويكفي أن نشير بهذا الصدد الى قيام ناشر إسرائيلي في الثمانينيات بنشر مجموعة من الأعمال تحت عنوان «كنوز الفكر اليهودي» وكانت المجلدات الستة كافة التي تم نشرها أعمالاً كتبت في أسبانيا خلا ل الفترة ١٠٥٠-١٤٢٨. لا بل أن خمسة من الأعمال الستة تمت كتابتها باللغة بالعربية. وتضمنت الأعمال كتابين للمؤلف جابريول(المعروف أكثر باسمه اللاتيني Avicebron) وأعمال للشاعر يهودا هاليفي ولموسى بن ميمون.
كانت أسبانيا المقاطعة الأولى التي انفصلت عن الخلافة. ولقد وصل الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل الى أسبانيا في عام ٧٥٥ هارباً من دمشق. وكان الحكام في أسبانيا قانعين في البداية بلقب الإمارة ، ولكن عبد الرحمن الثالث لقب نفسه في عام ٩٢٩ «أمير المؤمنين». وأصبحت الخلافة في قرطبة خلال القرن العاشر أكثر دول أوروبا رخاءاً على الصعيدين الثقافي والمادي. وفي الوقت الذي كانت فيه المدن في وسط أوروبا مجرد أكواخ من الخشب كان سكان قرطبة، الذين بلغ عددهم نصف مليون نسمة، ينعمون بشوارع مضاءة وشبكة لتصريف المياه وأكثر من ٣٠٠ حمام عمومي.
ألا أن حكم الأمويين بدأ بالضعف مع الانقسامات الداخلية ومع ضغوط المسيحيين المتزايدة من الشمال، والذين كانوا يطالبون باسترجاع الأراضي المسيحية التي ضاعت من أيديهم. ونتيجة لهذه الضغوط انقسمت الخلافة في قرطبة الى عدد من الدويلات الصغيرة في عام ١٠١٣. وكان بعض الحكام المسلمين شقراً وذوي عيون زرق نتيجة للزيجات المختلطة بين اليهود والمسيحيين والمسلمين. وجرى عقد معاهدات تحالف بين الحكام المسلمين والمسيحيين. وقام حاكم غر ناطة المسلم نصر الدين بنصرة المسيحيين في قتالهم مع المسلمين في اشبيلية. وكانت المعاهدات السياسية والعسكرية تتم على ضوء العرف والسلوك الذي كان سائداً بين الأمراء والإمارات في القرون الوسطى ، وليس انطلاقاً من الانتماءات الدينية. لا بل أن الزعيم المحارب الذي أشتهر بلقب السيد Al Cid (الكاثوليكي وبطل إعادة فتح واسترجاع البلاد في النصف الثاني من القرن الحادي عشر) حارب خلال حياته العاصفة على الجانبين ، على عادة الأمراء الطموحين في ذلك الزمن.
على أن القائمين على الكنيسة الكاثوليكية كانوا يعتبرون أي اتصال مع المسلمين أو أي تنازل يقدم لهم، مهما صغر شأنه ، هو بمثابة نصر لأعداء المسيحية . وبدءاً بالقرن الحادي عشر كانت هناك عملية استرجاع تدريجية للأراضي من المسلمين. ولقد سقطت طليطلة في ١٠٨٥ وقرطبة في ١٢٢٦ وفالنسيا في ١٢٣٨ وأشبيلية في ١٢٤٨ . على أن الموقع الأخير غرناطة، ظل صامداً لأكثر من قرنين ونصف من الزمن كمدينة مفتوحة للفنانين والعلماء والكتاب من جميع أرجاء حوض البحر المتوسط. وظلت غرناطة واحدة من أجمل مدن الدنيا وواحة للاجئين « الموريين» (العرب الهاربين من أسبانيا المسيحية) وبلاد شتات للمسيحيين واليهود على السواء.
لكن غرناطة سقطت أخيراً كذلك قصر الحمراء في عام ١٤٩٢ ، بعد أن أصبحت أنموذجاً للتعايش بين المسلمين والمسيحيين واليهود، أنموذجاً بات يعرف باسم «التعايش التلاؤمي» Convivencia.
وعلى امتداد كل فترة الاسترجاع كان المسيحيون يواجهون طرفاً أكثر رفعة حضارية. لقد كان الإسلام أكثر مدنية وأكثر تطوراً من الناحية التقنية إضافة الى أنه كان أكثر انفتاحا على العالم وأغنى تنوعاً من الناحية الروحية. وبعد الفتح المسيحي باتت طليطلة مركزاً لترجمة الأعمال العلمية العربية الى اللاتينية. ولقد جرى جمع أفضل عقول أوروبا آنذاك في تلك المدينة. وساهم العلماء والباحثون المسلمون والمسيحيون واليهود من طليطلة وقرطبة وأشبيلية وغرناطة في إخراج المنهج الإنساني الأوروبي الى حيز الوجود عبر تعريف أوروبا المسيحية بكلاسيكيات تأريخ العلوم. وهذا يصح على نظريات الحساب التي طورها إقليدس وأبولونيوس وأرخميدس وعلى علوم الفلك لدى المصري بطليموس وعلى علوم الطب لدى أبوقراط وجالينوس.
وعلى النقيض من ذلك لم يكن هنالك من تأثيرات في الاتجاه المعاكس . فلم تخلف الإمبراطورية الإسلامية في أسبانيا ورائها بعد ٨٠٠ سنة تقريباً ، سوى وثيقة واحدة تدل على اهتمامها بلغات شمال أوروبا. ولم تكن تلك الوثيقة سوى ورقة تحتوي على بعض الكلمات الألمانية مع مرادفاتها العربية. إن موقف المسلمين تجاه الأوربيين الهمج آنذاك يظهر جلياً في تعليق كتبه أحد المسلمين من طليطلة في أواسط القرن العاشر وتناقلته الأجيال. وهذا الوصف ينطبق الآن على رأي الجماعات التي تعاني من رهاب الأجانب والغرباء في أوروبا الغربية:
« ... إنهم أقرب الى البهائم منهم الى البشر. فبعد الشمس المفرط عن مسامات رؤوسهم برّد هوائهم وكثف وجوهم وبذا أصبحت أمزجتهم باردة واخلاقهم فجة فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم وانسدلت شعورهم فعدموا بهذا الفهم الدقيق والنظر الثاقب وغلب عليهم الجهل والبلادة واستشرى بينهم العمى والغباوة» (كتبه صاعد بن أحمد القاضي الطليطلي المتوفي سنة ١٠٧٠).
وأنتشر تأثير العرب في التعليم والعلم والثقافة الأوروبية أيضاً عبر صقلية. إذ كانت هذه الجزيرة مقاطعة بيزنطية في بداية القرن التاسع. وتمكن المسلمون في عام ٨٢٩ من الحصول على موطئ قدم فيها. ومع عام ٩٠٢ سقطت الجزيرة بكاملها في أيديهم الى جانب أجزاء كبيرة من جنوب إيطاليا. لكن السيطرة الإسلامية لم تدم طويلاً هناك كما في جنوب أسبانيا. إذ تمكن النورمانديون من استرجاع صقلية في أواخر القرن الحادي عشر، وعلى الرغم من قصر الفترة الزمنية الا ان المدن الصقلية بشكل خاص كانت قد «تأسلمت» مما انعكس في انصهار ثقافي مرموق ظل حياً ومتألقاً لقرون.
وكانت حكومة النورمانديين ذات طابع عربي كامل. إذ أن روجر الأول، وهو الذي بدأ الحملات ضد المسلمين في الجزيرة ، أحاط نفسه بالفلاسفة وعلماء الفلك والعلماء العرب. وكان بلاطه في باليرمو بلاطاً شرقياً أكثر مما كان غربياً. ولقد ظلت الجزيرة لأكثر من قرن من الزمن مملكة مسيحية يحتل فيها المسلمون أغلب المراكز الرفيعة.

متابعة

الفنان صالح القيسي القادم من جمهورية البرتقال

محمود النمر

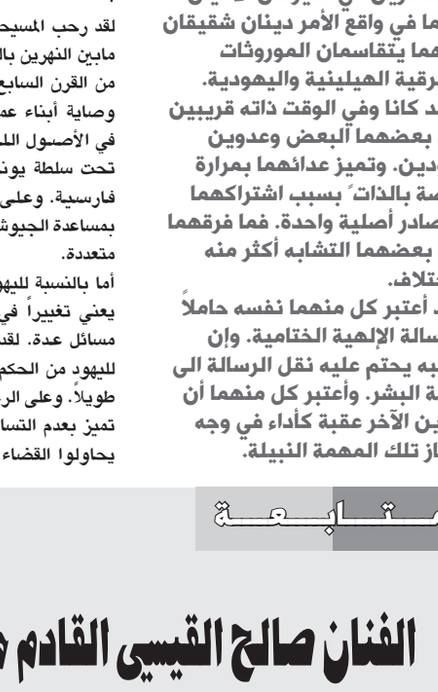

من جمهورية البرتقال جاء محملا بعفوية النسغ الذي يمتد في الجذور والاغصان وحتى تكتمل دورة الحياة في الخضرة وبهجة طلع النخل الذي لايستسلم للريح العاتية ويقف بصبر ومكابرة كـالأم العراقية في شموخها وهي تعطي بيد حنونة وحضن دافىء ودمعة حيرى ،الأم التي جسدها الفنان صالح القيسي في تمثاله الذي جاء به للمشاركة في مسابقة نصب المرأة الذي تقيمه مؤسسة المدى .
وعن طبيعة هذه المشاركة يقول :
. مشاركتي بهذا التمثال الذي يرمز الى الأم ومزجت بينها وبين النخلة صاحبة الخضرة الدائمة والعطاء والظلال كذلك هي مبادىء الأم العراقية التي تتمثل بالصبر وحمل المعاناة وكانت وحدها تتحمل الوزر الاكبر وهذا التمثال جئت به للمشاركة في مسابقة نصب المرأة التي تقيمة مؤسسة المدى .
اما عن مشاركته في المعارض الخارجية يقول:
شاركت في الاردن بمعرض مشترك وفي سوريا عملت نصبا للسلام ومازال على دوار بيطرة سور دمشق وامتلك الكثير من الاعمال الفنية ولكني ابحث عن تمويل المعرض لأنه يكلف وانا لست قادرا على تمويله وهذه الاعمال توثيق للفترة الصعبة التي مررنا بها قبل اعوام .
وتحدث عن الحركة الفنية في ديالى وقال: بعد انحسار الارهاب الدموي قمنا نحن مجموعة من الفنانين تجمعنا برعاية قسم الفنية في كلية التربية الاساسية في جامعة ديالى وانشأنا معرضا تشكيليا وهي اعمال نحت ورسم وسيراميك وبدعم من جمعية التشكيليين العراقيين المقر العام وقد كان لها الفضل في أنشاء فرع لجمعية التشكيليين في ديالى وقدمنا معرضنا الأول بعد تحسن الوضع الأمني .

صدر الدين أمين

رسام تسكن لحيته العفاريت والكائنات المركبة

خالد خضير الصالحي

لم يكن إجماع النقاد عندنا على ان الرسام الكردي العراقي المقيم في بنسلفانيا صدر الدين أمين فنان بدائي، دونما أسباب قوية كان أهمها: درجة الهوس التي يبديها ذلك الرسام بالمحيط والبيئة، وموجوداتهما من الكائنات التي يتخذها وسيلة بصرية بهدف الكشف عن المعطيات الجمالية الكامنة في طيات الكيان المحيطي بصفته موضوعه الأثير وربما الوحيد، فكانت لقى ذلك المحيط تشكل بوابة الفنان إليه، لقى كان يبني وفقها منظومته الشكلية، فمن لا يعرفه سيحكم على تجربته وكأنها تجربة رجل بدائي، مازال يعيش في احد أدغال مجاهل أفريقيا الاستوائية، يرتدي لباسا من الريش او الجلد، يركض خلف الطرائد، يعيش في الكهوف والمغارات، وهو لم يفعل شيئا سوى انه نسخ لنا رسومه من صور الطرائد على جدران تلك الكهوف.
لم يكن صدر الدين أمين يؤمن بما امن به عشرات من الرسامين العراقيين باتخاذ مستحثات الجدران العتيقة موضوعا لهم فكانوا يستقرئون سطوحها، ويجرون بحوثهم الأركولوجية عليها؛ لاكتشاف كوامنها الإشارية والعلاماتية؛ باعتبارها مقطعا عرضيا، او شريحة نسيجية تحمل واقع الحياة الإنسانية في اصغر تفصيلاتها؛ من خلال اكتشاف مخلفاتها التي تشكل أثرا لمرور إنساني ترك إشارته علي سطح المحيط: كتابات، وآثارا، وحزوزا، حينما مثلت هذه الحكايات والأساطير معينا أساسيا في تشكيل البنية الثقافية المستمدة من الميثولوجيا الشعبية لمناطق الغابات الجبلية في العراق، والتي أعاد صدر الدين أمين صياغتها من خلال فن عالي التقنية والصياغة البنائية.
يؤكد الرسام صدر الدين أمين في كل عمل جديد، او قديم، بأنه ليس فقط مسكونا بهاجس التوحد مع الطبيعة باستحضار كائناتها، بل هو متوحد بعناصرها، ربما كان ذلك راجعا لإيمانه بحتمية عودة كل كائن، يوما ما، إلى الطبيعة، من حيث أتى، فتتحلل عناصره، وتمتزج بعناصر الطبيعة المكونة، عناصر خرجت منها يوما ما، وستعود إليها يوما، وستنبعث منها تارة أخرى ضمن مكونات كائن آخر مختلف.. وهكذا؛ وبذلك يكون نزوعه نحو تأسيس لوحته من عناصر الطبيعة البكر، إقرارا بوحدة الوجود وعناصره الخليقية التي يحشدها في لوحته بكرم باذخ، وباندماج ذوباني بين تلك الموجودات، وبشكل تكون فيه تلك العناصر مادة مشرعة دائمة للخلق، فهي إذن عناصر تكوين (محايدة)، من الناحية (الاجناسية)، ان صح التعبير، مستعدة لبناء أي عنصر او كائن جديد، فهي دائبة الحركة والانتقال، من كائن لآخر، او من مكان لآخر.
ان احد أهم الأدلة على إيمان صدر الدين أمين بوحدة كائنات اللوحة هو تعطل اشتغال فعالية الشفرات الجينية لكل كائن بشكل يخرق مواصفات النوع، ويؤدي إلى امتزاج المواصفات الخليقية للكائنات، فكثيرا ما تتعدد أطراف احد ذوات الأربع، ولعدد غير محدد، في كل مرة، حتى يقترب أحيانا من أشكال الديدان ونحوها، فلا وجود لمواصفات موروثة ثابتة، تحفظ لكل نوع خليقي مواصفاته الجينية وتميزه المحفوظ، وبذلك يبرهن أمين على انه قد خطى خطواته: الأولى والاهم، نحو تحقيق وحدة العالم الحيواني، وصولا إلى تحقيق نزوع الكائنات للعودة إلى أزلها، أي تحللها إلى كائنات مجهرية، من ذوات الخلية الواحدة، خلية محاطة بغشاء يحفظ أجزائها من التبدد، وصولا إلى الخلية (الحيوا - نباتية)، ان كانت تصح مثل هذه التسمية في علم الأحياء.
يحقق الرسام صدر الدين أمين شكلا آخر من أشكال الوحدة على سطح لوحته، بتأكيد ذوبان الحدود الفاصلة بين التشخيص والتجريد، حيث لا يمكن في كل مرة وبثقة، تبين طبيعة العديد من أشكاله، هل هي كائنات مجهرية تمظهرت بمظهر تجريدي، أو ان ما نشاهده نمطا تجريديا تلبس، عبر عملية تشاكل صوري، شكلا ما، شكلا كان قد علق بذاكرته من أشكال الكائنات المجهرية، فيكون ذلك واحدا من أهم أسباب افتراض وجود الوحدة الخلائقية في تجربة هذا الرسام.
نتلمس في تجربة صدر الدين، نمطا آخر مهما من التوحد،ذوبانا للحدود بين الهندسي والطبيعي، فقد يتحول قرص الشمس بيسر من دائرة هندسية تامة الاستدارة، إلى كائن أميبي، تخرج أطرافه خارج الشكل الذي كان دائريا فصار شكلا طبيعيا غير تام الاستدارة.
ربما نتخيل صدر الدين او يتخيل نفسه في مختبر بيولوجي يقوم بتجارب جينية تمازج بين جينات كائنات مختلفة، فكانت إحدى نتائج تجاربه تلك كائنا (خرافيا) مركبا غريبا، رجلا برأس حيوان، ربما يشكل امتدادا للمناطورات والقنطورات التي كانت تظهر في فنون الرسم على مر العصور، انه كائن بشري مازال محتفظا بكل نوازعه الحيوانية الأصيلة التي يؤكد نمطا منها كل مرة يستبدل فيها رأسه: برأس كلب او ذئب او طائر او ثعلب او قط وحشي، او رأس كائن لا تبين ملامحه، كائن زئبقي متلون يمارس اغرب طقوس السحر والتحولات.
مثلما وصف والت وايتمان رجلا تملا لحيته الفراشات؛ فإننا نصف صدر الدين أمين بأنه «رسام تسكن لحيته العفاريت والكائنات المركبة».